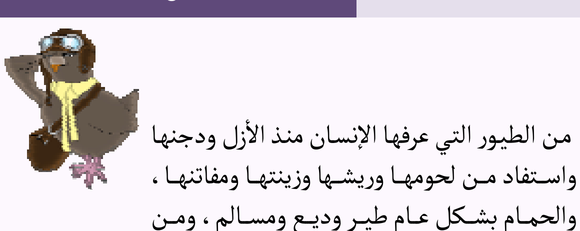
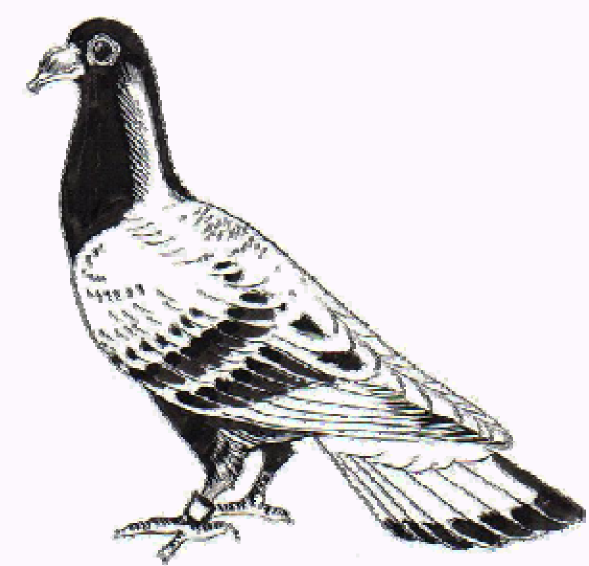


سيرة الحمام الزاجل التاريخية



Historical Biography of The Carrier Pigeon

أشرف صالح

رئيس التحرير

عضو إتحاد كتاب الإنترنت العرب

كاتب وباحث - جمهورية مصر العربية

Mr.ashraf.salih@gmail.com

▪ **الاستشهاد المرجعي بالمقال:**

أشرف صالح ، سيرة الحمام الزاجل التاريخية.- دورية كان التاريخية.- العدد الرابع ؛ يونيو٢٠٠٩. ص ٧٨ – ٨٣. (www.historicalkan.co.nr)

الحمام

من الطيور التي عرفها الإنسان منذ الأزل ودجنها واستفاد من لحومها وريشها وزينتها ومفاتنها ، والحمام بشكل عام طير وديع ومسالم ، ومن أنواع هذه الطيور الجميلة الحمام الزاجل الذي لعب دوراً كبيراً في حياة الإنسان منذ أقدم العصور في كل المجالات الحربية والاقتصادية والتجارية والإعلامية والصحية... الخ.

الحمام الزاجل مخلوق مستأنس ألِفٌ ، وله اسم آخر هو ، حمام الرسائل ، ومنه ما يزيد على خمسمائة نوع ، وهو يمتاز بحدة الذكاء والقدرة الفائقة على الطيران ، ويمتاز بغريزة قوية يهتدي بها إلى هدفه وموطنه. وحول معنى كلمة زاجل يرى بعض أنها كلمة عربية الأصل ، وتعني الرامي أو الدافع ، وهناك رأي بأن أصل الزاجل فارسي ، وهي تعني قائد العسكر أو قائد الجند ، واستخدمت الكلمة للتعبير عن الحمام المستخدم في نقل الرسائل من دون تحديد سلالات معينة ، كما هو جارٍ في الوقت الحاضر ، ثم أصبحت الكلمة تستخدم للتعبير عن الحمام صاحب قدرة الطيران العالية والسلالات المستخدمة في السباقات ، كما أن الغرب عندما نقلوا تربية حمام الرسائل عن العرب قاموا باستخدام اللفظ نفسه ZAJEL ، وأصبح هذا الاسم هو المتداول عالمياً.

ويمثل الحمام مع غصن الزيتون علامتا السلام والوئام في كل أنحاء العالم ، ويرجع السر في ذلك إلى ما جاء في التوراة بأن سيدنا نوح – عليه السلام – أرسله ليبحث عن الأرض التي يستطيع أن يرسو عليها بسفينته ، وقد قام الحمام بتلك المهمة خير قيام إذ عاد وهو يحمل غصن الزيتون دلالة على انتهاء الطوفان.

وقد حفل تاريخ البريد بوسائل نقل عديدة عبر السنون ، كان الهدف الرئيسي من استخدام تلك الوسائل هو الوصول للسرعة القصوى لنقل الإرساليات البريدية ، مع ضمان انتظام وأمان تلك المواد البريدية. وجاءت أول دلالة على استخدام الحمام الزاجل في توصيل الرسائل من الإغريق ، حيث ذكر المؤرخ بلينيوس أن نتائج مسابقات الألعاب الاولمبية - مثل المصارعة- كانت تُرسل إلى المدن البعيدة بواسطته. يقول ول ديورانت في قصة الحضارة "ولم يكن في بلاد اليونان نظام للبريد ، وحتى الحكومات نفسها لم يكن لها مثل هذا النظام ، بل كانت تقنع بالعدّائين ؛ وكانت الرسائل الخاصة تنتظر إلى أن يتاح لها مَن ينقلها منهم. وكانت الأخبار الهامة تُرسل بالإشارات النارية يتلقفها تل من تل أو بالحمام الزاجل."

أما التراسل الحربي بواسطة الحمام ؛ فإن الأقدمين كانوا عند حدوث حدث مهم ، يعلقون الخبر بعنق حمامة أو ضمن قارورة صغيرة من الورق الذهبي وهو من الذهب الخالص بلغ الغاية في الرقة والخفة وذلك لتكون مع خفتها على الحمامة حافظة للرسالة من تأثير العوارض الجوية ، وكانوا يضعون ضمن القارورة رسالة من الورق الرقيق ويكتبونه بقلم يسمى الغبار ، ثم يوضحون على ظهر الرسالة وقت سفر الحمامة بالتدقيق التام ، وبعد قليل يطلقون حمامة أخرى حاملة الخبر نفسه على النمط المذكور خوفا من ضياعه.

وقد وصف السيوطي ذلك في كتابه "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة" قال: " ورأيت الأوائل لا يكتبون في أوائلها بسملة ، قال وأنا ما كتبتها قط إلا ببسملة للبركة ، وتؤرخ بالساعة واليوم لا بالسنين ، وينبغي أن لا يكثر في نعوت المخاطب فيها ولا يذكر في البطائق حشو



الألفاظ ، ولا يكتب إلا لب الكلام وزبدته ، ولا بد أن يكتب شرح الطائر ورفيقه إن كانا طائرين قد سرحا حتى إن تأخر الطائر الواحد رقب حضوره أو يطلق لئلا يكون قد وقع في برج من أبراج المدينة ، ولا يعمل للبطائق هامش ، وجرت العادة بأن يكتب في آخرها: وحسبنا الله ونعم الوكيل".

وكان أن أول استخدام للحمام الزاجل في الأغراض الحربية عندما حاصرت قوات مارك انطوني قوات بروتس في مدينة "مودلينا " ، فكان اوكتافيوس الثالث يتصل بقلعة بروتس المحاصرة بواسطة الحمام الزاجل. وقد استخدم الرومان الحمام الزاجل أيضاً بغرض الترفيه ، فكانوا يأتون به إلى روما عند مجيئهم لحضور حفلات سباق العجلات ثم يصبغونه بألوان تشير إلى الفرق الرابحة أو الخاسرة في الرهان ويطلقونه فيعود بسرعة عجيبة إلى أبراجه حيث كان القوم ينتظرونه ليقفوا بذلك على الرابحين. ويذكر أن قورش (٥٩٠- ٥٢٩ ق.م)العظيم مؤسس الإمبراطورية الفارسية أستخدم الحمام الزاجل للاتصال بالأماكن النائية في الإمبراطورية.



وللحمام الزاجل عند العرب تاريخ طويل ، فهم من أول الأمم التي عرفت أهميته وتربيته واهتمت بأنسابه ووضعت الكتب في طبائعه وأمراضه وعلاجه. وقد ذكر ابن النديم هذه المؤلفات في "الفهرست" ومنها: كتاب الطير لأحمد بن حاتم الباهلي (المتوفى سنة ٢٣١هـ)، كتاب الحمام لأبي عبيدة معمر بن المثنى (المتوفى سنة ٢١٠هـ)، كتاب الطير لأبي حاتم سهل بن محمد السجستاني (المتوفى سنة ٢٥٥هـ).

وقد ذكر الجاحظ في كتاب "الحيوان" اهتمام العرب وولعهم بالحمام الزاجل ، فكان عندهم دفاتر بأنساب الحمام كأنساب العرب ، "ولولا الحمام الهدي- الزاجل- لما جاز أن يعلم أهل الرقة والموصل وبغداد ما كان بالبصرة وحدث بالكوفة في يوم واحد ، حتى أن الحادثة لتكون بالكوفة غدوة فيعلمها أهل البصرة عشية ذلك".

الجدير بالذكر ؛ أن البريد الذي أسسه الأمويين كان يعتمد على الخيل والجمال والبغال وتبادل الإشارة بالنيران والدخان والمرايا والطبول في إيصال الأخبار والمعلومات العسكرية من وإلى مركز الخلافة ، ومع اتساع رقعة الخلافة الإسلامية وزيادة حروبها وفتوحاتها وكثرة الفتن الداخلية ، والقلاقل ومحاولات انفصال الأقاليم عنها ، ومع ازدياد مصادر الثروة وتنوعها وكثرة مؤسسات الدولة ودواوينها ، صار لابد من وسيلة أكثر كفاءة وسرعة لضمان أقصى فاعلية لعمل ديوان البريد الذي يضمن عمله اتصال إطراف الدولة الواسعة ببعضها وربطها بالعاصمة.

لذلك أدخل الخلفاء العباسيون استخدام الحمام الزاجل في البريد لما يمتاز به من السرعة الفائقة ولسهولة إعادة نقله للاماكن التي ستطلقه مرة أخرى ، بالإضافة إلى انخفاض كلفة التربية قياساً بالجياد والإبل ، ولتكاثره السريع وكذلك لطيرانه دون الحاجة لدليل أو مرشد ، ولدقته في الوصول لهدفه وأيضاً لجمال شكله والفته. ويمكن الرجوع في هذا الباب إلى حادثة تاريخية ، إذ أن خبر انتصار المسلمين على المسيحيين في معركة الذلاقة بالأندلس عام ١٠٨٦م أعلن من طرف المعتمد إلى أبنه في اشبيلية بواسطة الحمام الزاجل ، وقد قُرأت الرسالة على العموم في المسجد الكبير باشبيلية.

وذكر الحميري في كتابه "الروض المعطار" أن خلفاء بني العباس تنافسوا في اقتناء الحمام والعناية به وتوسيع دوره وتحسين نسله وأخضعوه لمراقبة دقيقة ونظموا سجلات بحركته وخصصوا له مربين يتقاضون رواتب عالية. ويذكر المسعودي أن المعتصم العباسي علم بانتصار جيشه على بابك الخرمي وأسره عام (٢٢٣هـ) عن طريق الحمام الذي أرسله قائد جيشه من الجبهة إلى سامراء. فقد "أطلقت الطيور إلى المعتصم وكتب الفتح ، فلما وصل إليه ذلك ضج الناس بالتكبير وعمهم الفرح وكتب الكتب إلى الأمصار بالفتح ".

في الحقيقة ؛ لقد اعتنى عدد من خلفاء العباسيين كالمهدي والواثق بالحمام الزاجل ، أما الناصر لدين الله فأعاد العمل ببريد الزاجل عام ١٢٢٥م ولكن ذلك لم يلبث أن اختفى بعد غزو المغول للعراق سنة ١٢٥٨م. ويذكر الحميري أنه بلغ من أهميه الحمام الزاجل أن وصل ثمن الطائر منه أيام العباسيين إلى سبعمائة دينار وقد بيعت حمامة في خليج القسطنطينية بألف دينار. وكان من نتيجة الاتصال بين العرب والروم البيزنطيين في إقليم الثغور على الحدود الشمالية للشام أن انتشرت بين العرب هواية اللعب بالحمام ، وهي هواية سرعان ما تفشت حتى أنها اجتذبت عدداً من الخلفاء العباسين ، ثم بعد ذلك انتشرت هواية اللعب بالحمام في جميع الأقطار الإسلامية ابتداءً من القرن الثامن الميلادي.

ولكن الفاطميين تجاوزوا العباسيين باهتمامهم بالحمام الزاجل ، فقد وضعوا له ديوانا خاصاً كما ذكر القلقشندى في كتابه "صبح الأعشى" ، وجاء في كتاب "التعريف بالمصطلح الشريف" لابن فضل الله العمري والذي يشتمل على فصل واسع عن مراكز الحمام في مصر ، أن أصل أفضل الحمام الزاجل المعروف في مصر من مدينة الموصل العراقية ، ويضيف أن الخلفاء الفاطميين في مصر بالغوا في الاهتمام بهذا اللون من الحمام حتى أنهم أفردوا له ديوانا وجرائد بأنساب الحمام ، وكان لكل خليفة مسئول خبير في شؤون الحمام يُدعى "صاحب الحمام" يعد من كبار مسئولي الدولة.

يذكر القلقشندى في صبح الأعشى عن المقر الشهابي بن فضل الله في " التعريف " أن الحمام أول ما نشأ في الموصل ، وأن أول من اعتنى به من الملوك ونقله من الموصل السلطان نور الدين بن زنكي سنة (٥٦٥هـ)، حيث نظمت في عهده أول خطوط سير حمام الزاجل على نسق البريد الاعتيادي بنوع مستوفي النظام من مراكز ومستخدمين ، وأعد له مطارات (محطات) ذات أبراج في كل ١٣ ميلاً (٢١كم تقريبًا). وكان حارس كل مركز حال وصول الحمامة إلى البرج يقيد ساعة وصولها إليه وذهابها على ظهر الرسالة التي تحملها الحمامة.

ومن ضمن إتقان هذا البريد ؛ أنه كان لكل حمامة علامات تُعرف بها تشبيهاً برسل البريد البري ، وهذه العلامات من نقش لطيف (وهو أسم السلطان) على منقار الحمامة (ورقمها) على ساقيها ، وكان فك الرسائل من عنق الحمامة مفوضا إلى رئيس الحرس دون غيره ، وكان الحراس يراقبون الجو على الدوام بالتناوب ليلا ونهارا خوفا من أن يمر عليهم الحمام وهم غافلون. وكان لا يستخدم للرسائل السلطانية إلا الحمام الأزرق اللون ، كما كان هناك البريد المباشر السريع الذي لا يتوقف بالمطارات الفرعية ، وكان ذلك بين عاصمة الدولة وعواصم الولايات ؛ فإذا أراد السلطان مثلاً أن يبعث رسالة من القاهرة إلى

دمشق ، أطلق من أبراجه حمامة من حمام دمشق فتصل إليها الرسالة دون توقف.

وكانت مراكز الحمام التي رتبها السلطان نور الدين تتكون من خطوط ثانوية تتفرع عن الخطوط الرئيسية وأهمها: خط القاهرة .دمشق عن طريق غزة والقدس ، غزة - كرك على البحر الميت ، دمشق — بعلبك ، حلب — الرحبة على نهر الفرات ، برثة — قيسرية ، دمشق — برثة على نهر الفرات ، القاهرة — صفين ، القاهرة — دمياط ، الإسكندرية — القاهرة.

وكان في محطات هذه الخطوط نحو سبعة آلاف حمامة ، وفي كل محطة عدد كاف من الحمام حتى ترسل الرسائل إلى المحطة التالية في حال وصولها وهكذا حتى تصل إلى المحل المقصود ، بحيث يكون سفر الحمامة بين محطتين فقط ، وكان في كل محطة عدد من المستخدمين لمناظرة الحمام وخدمته ، ونقل الرسائل من حمام لآخر ، وتوزيع الحمام في محل اللزوم عند تكاثره في المحطة وغير ذلك. وكانت له إدارة عامة يرأسها رجل من كبار الحكومة ، وقيل أن محطة القاهرة كانت لا تخلو على الدوام من ألفي حمامة.

وقد ابتكر الفاطميين وسائل للتغلب على إمكانية وقوع الحمام الذي يحمل الرسائل بأيدي العدو ، فاستحدثوا رسائل مرموزه لا يستطيع العدو التوصل لمعناها ، كما استحدثوا من أجل الحمام ورق خاص خفيف وصغير الحجم يكتب عليه ويلصق تحت جناح الحمامة. قال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر (٦٢٠هـ - ٦٩٢هـ) في كتابه "تمائم الحمام": "كان الجاري به العادة أنها لا تحمل البطاقة إلا في جناحها لأمور منها حفظها من المطر ولقوة الجناح والواجب أنه إذا انطلق من مصر لا يطلق إلا من أمكنة معلومة ، فإذا سرحت إلى الإسكندرية فلا تسرح إلا من منية عقبة بالجيزة وإلى الشرقية. فمن مسجد التين ظاهرة القاهرة وإلى دمياط فمن بيسوس بشط بحر منجي ، والذي استقرت قواعد الملك عليه أن طائر البطاقة لا يلهو المالك عنه ولا يغفل ولا يمهل لحظة واحدة فيفوت مهمات لا تستدرك ، أما من واصل وإما من هارب وإما من متجدد في الثغور. ولا يقطع البطاقة من الحمام إلا السلطان بيده من غير واسطة أحد فإن كان يأكل لا يمهل حتى يفرغ ، وإن كان نائماً لا يمهل حتى يستيقظ بل ينبه. وينبغي أن يكتب البطائق في ورق الطير المعروف بذلك".

الواقع أن ؛ الإسكندرية والقاهرة أيام الفاطميين ارتبطتا بمدن بلاد الشام حتى حلب بشبكة من الأبراج في حلب وحمص وحماة والشام والقدس إلى غزة ورشيد والإسكندرية والقاهرة. وكانت الطريقة المتبعة هي مثلاً أن يُربى الحمام في مدينة ما مثل دمشق وتبنى له بروج السكن والتفريخ ثم تنقل تلك الطيور إلى القدس مثلاً وتحتجز في أماكن مخصصة ومصنفة. ولإرسال رسالة عاجلة ما ، فإنها كانت تربط برجل الحمامة ويطلق سراحها فتعود إلى دمشق موقعها الأصلي.. وهكذا. وكانت الرسالة تستغرق حوالي يومين من الشام إلى القاهرة ، وتنقل الرسالة من قِبل أربع حمامات في ذلك الطريق.

لقد استخدم الحمام الزاجل في توصيل الأخبار بين الأصقاع النائية ، فكان بمثابة وكالات الأنباء في الحروب الطاحنة بين القرامطة ومركز الخلافة الإسلامية ، حيث كان الحمام يقطع آلاف الأميال يوميا باتجاهات مختلفة في أنحاء الإمبراطورية الإسلامية ، ساعده في ذلك سلسلة من الأبراج مجهزة لاستقباله أو استبداله ، يبعد الواحد منها عن الآخر حوالي خمسين ميلا. وكانت القوافل الكبيرة تحمل معها أقفاص الحمام ترسل بواسطتها رسائل إلى مراكزها في كل مرحلة من رحلتها لكي ترشد القوافل الصغيرة التي تسير على نفس الدرب ، أو لكي تبلغ مراكزها بتعرضها لخطر ما فتطلب النجدة من اقرب مركز عبرته ، أو أنها تخبر المراكز التي تنوى الوصول إليها بمواعيد وصولها ونوع بضاعتها وأثمانها ومالكيها ، ولكي يستقبلها التجار المعنيون بالأمر.

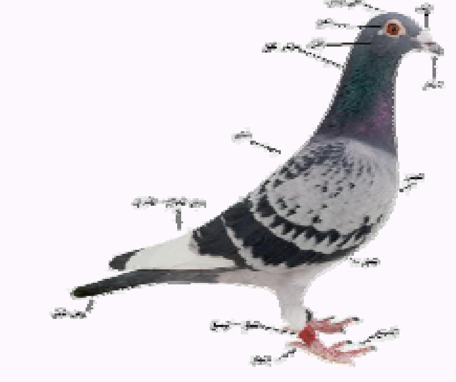
وفي القرن العاشر الميلادي ؛ لجأت الشيعة إلى استعمال حمام الزاجل في المراسلات ، كما استعان به أيضاً زعيم القرامطة في العراق ، وابن حوشب في اليمن ، وأبو عبد الله الشيعي في المغرب.

وفي فترة الحروب الصليبية ؛ كان من جملة ما أخذه الصليبيون عن المسلمين أثناء الحروب الصليبية ونقلوه إلى أوروبا كيفية تدريب الحمام الزاجل واستخدامه في نقل المعلومات العسكرية ، فيذكر السيوطي في كتابه "حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة" أن الإفرنج فطنوا إلى هذا السلاح الجديد "الحمام الزاجل" وذلك عندما تفاجئوا بسقوط حمامة بانقضاض طائر جارح عليها ، فعلموا من الرسالة التي كانت تحملها استعمال العرب للحمام في نقل الرسائل.

الجدير بالذكر ؛ أن الأيوبيين استخدموا الحمام الزاجل للاتصال بالمسلمين أثناء حصار الصليبيين لهم براً وبحراً في مدينة عكا لمدة عامين كاملين (١١٨٩- ١١٩١) ، حيث حمل الحمام رسائل شديدة الأهمية إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي.

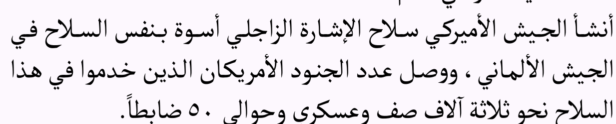
وفي عهد المماليك ازدهر البريد وبلغ ذروته لاسيما زمن الملك الظاهر بيبرس البندقداري ، حيث ذكر ابن عبد الظاهر أن عدد الحمام المستعمل للرسائل بلغ في آخر جمادي الآخرة من سنة (٦٨٧هـ /١٢٨٩م) ألفا وتسعمائة طائر ، وكان بالقلعة في مصر عدة من المقدمين لكل مقدم منهم جزء معلوم ، وكانت الطيور المذكورة لا تبرح في الأبراج بالقلعة ما عدا طائفة منها فإنها في برج بالبرقية خارج القاهرة يعرف ببرج الفيوم رتبه الأمير فخر الدين عثمان بن قزل إستادار الملك الكامل محمد بن الملك العادل بن بكر بن أيوب ، وكانت البطائق ترد إليه من الفيوم ويبعثها من القاهرة إلى الفيوم من هذا البرج.

ذكر أحد الرحالة الإنجليز في القرن السابع عشر أن سماء سورية خلت من الحمام لوقت ما في أواخر ذلك القرن ، والسبب في ذلك أن حمامة وقعت في شباك صياد أثناء طيرانها بين الاسكندرونة وحلب ، ووجد الصياد رسالة مربوطة في رجلها كان قد أرسلها تاجر أوربي إلى وكيله الحلبي يخبره فيها بارتفاع أسعار جوز العفص في الأسواق الأوربية ويطلب منه أن يرسل له كميات كبيرة منه ، فقام الصياد بإرسال الرسالة إلى تاجر سوري محلى عمل على شراء كمية كبيرة من الجوز وأرسلها إلى أوربا وحصل منها مبلغاً كبيراً من المال ، حيث كانت لندن وبرلين تصنع من جوز العفص الأصباغ. وعندما شاع الخبر عمد الصيادون إلى اصطياد أعداد كبيرة من الحمام لعلهم يحصلون على غنائم مماثلة.



وفي سنة ١٨٤٠ رتبت شركة هافاس في باريس التراسل بالحمام بين لندن وبروكسل وباريس ، وقد صادف ذلك نجاحاً عظيماً لأنه لم يكن حينئذ سوى باب واحد للمواصلات على وجه السرعة وهو التلغراف الهوائي (على طريقة ساب) الذي كان يعطل سيره أقل ضباب يحدث في الجو ، فبواسطة الحمام كانت الأخبار المهمة التي تنشرها الجرائد البريطانية في الصباح تنقل من لندن الساعة الثامنة صباحاً فتصل إلى باريس الساعة الثانية بعد الظهر. وهكذا كان الحمام يقطع في السفر بين هاتين العاصمتين مسافة متوسطها ست ساعات ، أما أخبار بروكسل فكان يوصلها الحمام إلى باريس في مسافة أربع ساعات ، وبقي هذا الترتيب حتى امتداد الطرق الحديدية والتلغرافية.

وتؤكد الوثائق التاريخية أنه في أثناء الحرب الفرنسية البروسية (١٨٧٠ - ١٨٧١) ، وعندما تم حصار باريس لعدة أشهر قام الحمام الزاجل بنقل ما يقرب من ١٥٠ ألف رسالة. من داخل المدينة المحاصرة ، ولما فطن الألمان إلى ذلك حاولوا استخدام صقور دُربت على قتل الحمام أثناء تحليقه. وفي عام ١٨٧٨ أنشأ الجيش الأميركي سلاح الإشارة الزاجلي أسوة بنفس السلاح في الجيش الألماني ، ووصل عدد الجنود الأمريكان الذين خدموا في هذا السلاح نحو ثلاثة آلاف صف وعسكري وحوالي ٥٠ ضابطاً.



وقد استخدمت دول الحلفاء زمن الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) نحو مائة ألف حمامة موزعة على جيش البر والبحر والطيارات ، وكان معظم ذلك الحمام في خدمة (قلم الاستعلامات) ، وكان بعض الحمام يطير إلى الأقاليم الفرنسية والبلجيكية التي أحتلها الألمان فتلقي رسائل التشجيع والصبر. وقد وقعت عدة رسائل من هذا القبيل في يد الألمان ، وكثيراً ما كانت الدبابات نفسها تحمل أسراب الحمام وتستخدمها في نقل الرسائل في خطوط النار ، وقد لوحظ أن دخان النار ورائحة البنزين والروائح الشبيهة بها كانت تؤثر في الحمام تأثيراً سيئاً يستمر بضع دقائق ثم يزول.

وقد اشتركت في الحرب العالمية الأولى قوة مجنحة مستقلة عن الطائرات مع جنود الحلفاء للدفاع عن بريطانيا ، التي كانت تحتفظ بألوف من الحمام المدرب في مدارس خاصة أنشأت لتعليم تلك الطيور الشديدة الذكاء وإعدادها للمهمة. وكانت البحرية البريطانية قدرت نفع حمام الزاجل حق قدره إذ أنشأت دائرة حكومية تولت استخدام ذلك الحمام لنقل الأخبار من لاقطات الألغام التي لم تكن مجهزة باللاسلكي ، وقد جُمعت مئات من الحمام التي دربت لتلك الغاية خاصةً من الهواة في جميع أرجاء البلاد ونصبت لأجلها البروج الخاصة في المراكز الحربية ، ثم اتسع نطاق استخدام الحمام حتى شمل السلاح البحري الجوي فزودت جميع الطائرات البحرية بطوائف من ذلك الحمام فكان سبباً لإنقاذ كثيرين من قادتها الذين اضطرتهم الحرب إلى الهبوط في البحر على أميال من الشاطئ ، إذ دلت على مواضعهم تلك الرسائل المجنحة.

وتظهر سجلات الحرب شتى الخدمات الحربية المجيدة التي أداها هذا الحمام حتى أطلق على حمامة منه أسم (خط قادة الطائرات) وذلك لكثرة من أنقذتهم منهم ، لقد حمل الحمام الرسائل وطار فوق ميادين القتال ، وكثيراً ما كان يصاب في أثناء طيرانه برصاص الأعداء فلا يمنعه ذلك من مواصلة الطيران حتى يصل إلى المعسكر الذي يقصده ويسلم الرسالة التي يحملها ثم يسقط ميتا. ومن هذه الحمامات التي ذاع أمرها زمن الحرب حمامة تدعى شيرامي Cher Ami وقد أدت خدمات جليلة في عدة معارك ، وفي المرة الأخيرة التي طارت فيها هذه الحمامة وجه إليها الألمان ناراً حامية إلا أنها نجت حاملة رسالة خطيرة من فصيلة من الجنود الأمريكان كانت في حالة يأس شديد بسبب نيران الألمان ، وكانت نتيجة الرسالة أن نجت تلك الفصيلة من المأزق الذي كانت فيه ، إلا أن الحمامة نفسها كانت قد أصيبت بنيران الأعداء فسقطت وماتت بعد قليل من وصولها فاحتفل الفرنسيون بدفنها احتفالاً حاشداً.



وقد أثبتت الإحصاءات التي نشرت أن استخدام الحمام الزاجل خلال الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) قد نجح بنسبة ٩٩% وقد عرفت مصر الاهتمام بالحمام الزاجل منذ منتصف الأربعينيات حين قام عثمان باشا رامز - أحد أعيان مصر وقتها - بشراء أعداد كبيرة من الحمام الزاجل التي كان يقوم بتربيتها أحد الهواة الإنجليز أثناء وجوده في مصر ، وكون في عام ١٩٤٥ ما عرف باسم «الجمعية المصرية للحمام الزاجل» ولهذه السلالة أهمية تاريخية ، حيث يقال إنه عندما أراد سلاح الإشارة للقوات البريطانية التي كانت تتمركز في مصر بمعسكرات منطقة المعادي أثناء الحرب العالمية الثانية إيجاد وسيلة اتصال في نقل الرسائل بين دورياته التي كانت تجوب الصحراء الغربية إلى مقر قيادتها في مصر مع إحاطتها بالحماية من الوقوع في يد المخابرات الألمانية ، وهو الأمر الذي لم يكن ممكنا إذا ما أرسلت هذه الرسائل بالراديو ، لذلك لم يكن لدى الإنجليز حل سوى الحمام الزاجل لتنفيذ هذه المهمة.





ولكن نظرا لعدم وجود الوقت الكافي لاستيراد الحمام من بريطانيا وإعداده للخدمة في مصر ، فقد اتصل قادة سلاح الإشارة البريطاني بعثمان رامز لشراء ما لديه من حمام زاجل بعد أن تأكدوا من جودة السلالات التي بحوزته ، إلا أن عثمان رامز فضل إهداء كل ما لديه من حمام للجيش الانجليزي كهدية رمزية من الهواة المصريين. وعندما قرر سلاح الإشارة البريطاني التخلص من حمامه بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، رأى أن يرد لعثمان رامز هذا الجميل فوضع تحت تصرفه كل ما في معسكره بالمعادي من حمام زاجل ليختار منه ما يشاء ، ومرة أخرى أهدى عثمان رامز كل ما لديه من حمام الجيش الانجليزي إلى جمعية الحمام الزاجل المصرية ، التي باعته بدورها لحسابها في مزاد علني اشترى منه الهواة المصريون هذه الكمية.

وتعود خدمة البريد بالحمام الزاجل في الهند للعام ١٩٤٦م قبل عام من استقلالها عن بريطانيا واستخدم الجيش الهندي الزاجل أثناء الحرب العالمية الثانية وعندما وضعت أوزارها تم تسليم أسرابه إلى الشرطة. ويذكر أن الجنود أثناء الحرب كانوا يخفون الحمام تحت المعاطف مما ساعدهم على نقل رسائل هامة تتعلق بمواقع المدافع الألمانية على شاطئ نورماندي. كما استخدم الجيش الاسترالي الحمام الزاجل على نطاق واسع في الحرب العالمية الثانية في غينيا الجديدة والجزر المحيطة بها ، فقد كانت التضاريس الوعرة والأجواء غير الطبيعية سبباً في فشل الاتصالات اللاسلكية. وعند هجوم الألمان على بلجيكا اصطحب المظليون الحمام خلف خطوط جيوش الحلفاء ، ثم أطلقوه بعد ذلك مع رسائل عن نتائج عمليات التجسس التي نجحوا في الحصول عليها.



وقد كشفت وثائق تاريخية بريطانية تعود إلى أيام الحرب العالمية الثانية ، كيف أن الحكومة البريطانية فكرت في استخدام الحمام الزاجل لنقل أسلحة بيولوجية إلى خلف صفوف العدو ، ونشرها على مسافة تصل إلى ٢٠٠ ميل من مواقعها الأصلية ، وكان الكوماندر وليم راينر رئيس قسم وحدة الحمام الزاجل في وزارة الطيران قد أعد الخطة التي تقضي بوضع حاويات صغيرة في طائرة حربية يمكن أن تحلق على ارتفاع عالٍ فوق أراضي العدو لإلقاء الحاويات التي تفتح أبوابها تلقائياً ، لينطلق الحمام المزود بعلب المواد البيولوجية القاتلة إلى أهدافه. وقال راينر في خطته التي وضعت عام ١٩٤٥: "يمكننا الآن تدريب الحمام ليحط على أي شيء على الأرض ، وان ألف حمامة تحمل كل منها كبسولة من المتفجرات تهبط على أوقات زمنية على هدف محدد ستكون مفاجأة غير ظريفة على الإطلاق. لكن جهاز الاستخبارات الداخلية رأى أن الفكرة مجنونة ، وأن صاحبها مهووس بهذا السلاح العجيب ، وفي عام ١٩٤٨ أعلن جيش المملكة المتحدة أن الحمام الزاجل لم يعد له استخدام بعد الآن.

أما الحرب الكورية (١٩٥٠ - ١٩٥٣) فقد كانت المرة الأخيرة التي يستخدم فيه الحمام لأغراض المعارك والقتال ، حيث حافظ مقر كل فيلق على حمامة بالدور علوي للمقر ، كما أجريت اختبارات للحمام على حمل الرسائل ، ويذكر أنه خلال هذه الحرب أستخدم الآلاف من الحمام الزاجل مع الهابطين بالمظلات لتوصيل ما يزيد عن مائة ألف رسالة ، وعلى الرغم من ذلك فإن الحمام نادراً ما استخدم في الاتصالات التكتيكية أثناء هذه الحرب.

ونظراً لتقدم تكنولوجيا الاتصالات في أمريكا بعد انتهاء الحرب ، أعلن عام ١٩٥٧ أن خدمات الحمام الزاجل عفا عليها الزمن وأصبحت مستحيلة ، لذا بيعت معظم الطيور في زاد علني وتم التبرع بجزء لحدائق الحيوان في أنحاء البلاد. وبعد وفاة العديد من هذه الطيور تم إعادتها مرة أخرى للجيش ، حيث وضعت في المتاحف العسكرية وفاءً لإنجازاتها وإنقاذها لحياة الكثيرين.



وصفوة القول ؛ أن البريد بشكله الحديث وما لحق به من تطور وسرعة مذهلة في إيصال الرسائل براً وجواً وحتى عن طريق البريد الإلكتروني ما هو إلا امتدادا لدور الحمام الزاجل في نقل الرسائل ، وهو دور لا يغفله أي دارس أو متتبع لمسيرة البريد ومراحل تطوره. وحقاً الحمام الزاجل هو أول وكالة أنباء في التاريخ ، وأول ساعي بريد في التاريخ ، وأول خدمة بريد جوي في العالم ، وأول مذيع للأحداث الرياضية ، والبطل المجهول في المعارك العسكرية ، وهو رسول فوق العادة ، أدى خدمة توصيل الرسائل والمعلومات بجدارة في ساحات المعارك وأثناء القتال ، وكان أول رسول للعشاق ، حمل على جناحه رسائل الشوق والغرام.

وقد ظل أثر الحمام وتاريخه في حمل الرسائل وتوصيلها حياً في نفوس الناس ولا أدل على ذلك من قول أحدهم وأنت تؤكد عليه سرعة إبلاغ الرسالة فيقول لك: حمامة!





المصادر

١. الحميري (أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد المتوفى سنة ٩٠٠)، الروض المعطار في خبر الأقطار/ تحقيق إحسان عباس.- الطبعة الثانية.- بيروت: مؤسسة ناصر للثقافة، ١٩٨٠.

٢. السيوطي (جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن ٨٤٩ - ٩١١هـ)، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، المطبعة الشرفية، القاهرة ١٣٢٧هـ

المقالات

١. ابتسام علي ناصر، مقال بعنوان " الحمام الزاجل.. تأريخ وأسرار اكتشفها العرب واحتضنها الغرب "، نبأ نيوز (آراء ودراسات)، منشور بتاريخ ١٧ فبراير ٢٠٠٧، على الرابط: (http://www.nabanews.net/2009/7657.html)

٢. ابتسام علي ناصر، مقال بعنوان "الحمام الزاجل"، الصوت الآخر: مجلة أسبوعية سياسية ثقافية عامة، العدد (٤٣)متاح بتاريخ ٢٠٠٥/٤/١٨، على الرابط: (http://www.sotakhr.com)

٣. أحمد شوقي آله رشي، البريد، المركز الوطني للتوثيق، متاح بتاريخ ٣١ أكتوبر ٢٠٠٨، على الرابط: (http://doc.abhatoo.net.ma/IMG/doc/31_oct_8.doc)

٤. أشرف محمد مجاهد، تاريخ البريد الجوي المصري، مدونة حوارات بريدية، متاح بتاريخ ٢٤ مارس ٢٠٠٨، على الرابط (http://ashrafmojahed.maktoobblog.com)

٥. توفيق الغوينم، مقال بعنوان "البريد عند العرب"، جريدة الرياض، عدد الجمعة ١٠ جمادى الأولى ١٤٢٦هـ - ١٧ يونيو ٢٠٠٥م - العدد ١٣٥٠٧

٦. جريدة الشرق الأوسط، مقال بعنوان "الحمام الزاجل رسول فوق العادة"، متاح بتاريخ ٢٨ يوليو ٢٠٠٦ العدد ١٠١٠٤، على الرابط: (http://www.aawsat.com)

٧. حميد، مقال بعنوان "الحمام أول وكالة أنباء في التاريخ"، ملتقى الأدباء والمبدعين العرب، متاح بتاريخ ٢٤ مايو ٢٠٠٨، على الرابط: (http://www.almolltaqa.com)

٨. بهيج عمار(دكتور)، مقال بعنوان "الحمام الزاجل واستعمالاته في المراسلات بالمشرق العربي"، البيطرة العربية، متاح بتاريخ ٢٠٠٥/٤/١٦، على الرابط: (http://www.arabvet.com)

٩. عادل صبحي، مقال بعنوان "طائر الحرب والسلام"، موقع كلمات، متاح بتاريخ ٣٠مارس ٢٠٠٩، على الرابط: (http://www.kl28.com/books/showbook.php)

١٠. عادل محمد علي الشيخ حسين، حمام الزاجل؛ قديماً وحديثاً.- الطبعة الأولى.- عمان: دار الضياء، ٢٠٠١.

١١. عدنان غمدان الدقيمي، مقال بعنوان"الحمام الزاجل .. سيد الطيور وأنفعها في الحرب والسلم"، منشور في الجمهورية "يومية. سياسية. جامعة"، متاح بتاريخ الثلاثاء ٢٩ مايو ٢٠٠٧، على الرابط (http://www.algomhoriah.net)

١٢. عزيز باكوش، مقال بعنوان "تاريخ الحمام من التدجين إلى السباق"، الحوار المتمدن، العدد (١٥٧٤)، متاح بتاريخ ٢٠٠٦/٦/٧، على الرابط: (http://www.ahewar.org)

١٣. علي حمود الحسن، مقال بعنوان "الحمام الزاجل أول بريد ووكالة أنباء في التاريخ"، جريدة الصباح: سياسية يومية تصدر عن شبكة الإعلام العراقي، متاح بتاريخ ١٢ مارس ٢٠٠٩، على الرابط: (http://www.alsabaah.com)

١٤. ماهر فرخ، دراسة بعنوان "ديوان البريد المملوكي في بلاد الشام (٦٥٩هـ - ٨٠٣هـ/ ١٢٦١م — ١٤٠١م)"، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد ١٠٠، الكويت ٢٠٠٧.

١٥. مجلة أمواج إسكندرية، مقال بعنوان " الحمام الزاجل..أول ساعي بريد في التاريخ"، العدد (٩) ٢٠٠١، على الرابط: (http://www.amwague.com)

١٦. مجلة كلمات، مقال بعنوان "الحمام الزاجل عبر التاريخ"، متاح بتاريخ ١١ مارس ٢٠٠٩، على الرابط: (www.alkalemat.com)

١٧. محمد راتب النابلسي، ندوات الإعجاز العلمي: الندوة ٢٢ / ٣٠ (الحمام الزاجل)، متاح بتاريخ٢٥ مارس ٢٠٠٩، على الرابط: www.nabulsi.com/text/10nadwat/913-all/nad-) (elem22.doc

١٨. فيصل خالد، مقال بعنوان "سباق الحمام الزاجل .. هواية جديدة يكتشفها القطريون"، باب (BAB)، متاح بتاريخ أول مايو٢٠٠٩، على الرابط: (http://www.bab.com/articles/full_article.cfm?id=5928)

١٩. خلدون الحسيني، مقال بعنوان" الحمام الزاجل يربط الشمال بالجنوب من زاخو إلى الفاو"، جريدة بدر: يومية - سياسية- عامة، متاح بتاريخ ٦ أبريل ٢٠٠٩، على الرابط: (http://www.badrtoday.com/archif/1235/7.htm)

٢٠. عزة بدر(دكتور)، مقال بعنوان "الحمام أول رسول للعشاق قبل المحمول"، مجلة عيون المستقبل: تصدر عن جمعية رعاية أطفال السجينات، متاح بتاريخ أول فبراير٢٠٠٨، على الرابط: (http://eyoun.org/index.php?mod=article&cat=c4&article=193)

المراجع العربية

١. أمين توفيق الطيبى، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس.- طرابلس: الدار العربية للكتاب، ١٩٨٤.

٢. ول ديورانت، قصة الحضارة(حياة اليونان/ العصر الذهبي/ العمل والثروة في أثينا/ التجارة والمال)، صفحة ٢١٢١. (نسخة إلكترونية)

٣. يوسف أحمد الشيراوي، الاتصالات والمواصلات في الحضارة الإسلامية.- الطبعة الأولى.- قبرص: رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٩٢.

٤. عادل محمد الشيخ، حمام الزاجل: قديماً وحديثاً.- الطبعة الأولى.- عمان: دار الضياء ٢٠٠١.

المقالات والمراجع الأجنبية

1. Donald W. Boose, Duncan Anderson, US Army forces in the Korean War(1950-53), osprey publishing, united kingdom 2005.
2. Joe Razes, Pigeons of war, America in WWII magazine: August 2007 issue (www.americainwwii.com)
3. Lawless, Jill. The Associated Press. "Auction Focuses on Pigeon Warriors: Memories of elite WWII animal force included in offerings." January 6, 2008.
4. Osman, Lt. Col. A.H., Pigeons in the Great War: A Complete History of the Carrier Pigeon Service during the Great War, 1914 to 1918 (London, 1928)
5. Reese, Becca "The Flight of the Carrier Pigeon", EzineArticles.comm available in 30 May. 2008 at: (http://ezinearticles.com/?The-Flight-of-the-Carrier-Pigeon&id=1213330)

